

يوتق الحكمة من بقاء ومن يوتق
الحكمة فقد اوتى خيراً كثيراً وما
يذكر الا اولو الالباب

المساجد

فبشر عبادي الذين يستمعون القول
فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم
الله واولئك هم اولو الالباب

١٣١٥

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاربعاء ١٦ ربيع الاول سنة ١٣١٩ - ٣ يوليو (تموز) سنة ١٩٠١)

التقليد

« خطاب ألقاه في المدرسة الكلية الاميركانية في بيروت الفاضل الاديب »

« عبد الرحمن افندي شهنندر »

من تأمل هذا الوجود بعين الحكمة يعجب وتأخذة الحيرة لما يظهر
له ما يطارأ على الامم من التغيرات والتقلبات : فبينما هو ينظر في باب من
ابواب التاريخ الى ما وصلت اليه الامة المصرية مثلاً أيام القراعنة من العظمة
والمجد المؤثر يرى في باب آخر ان هذه العظمة قد انتقلت وهذا الجد قد
زال واصبحت تلك الامة في قبضة امة اخرى تتصرف فيها كيفما شاءت
وشاء الهوى . وما قيل عن المصريين يقال عن السكادانيين والاشوريين
والبابليين واليونان والرومان . امم زالت وآثارها تشهد لها بان ذكرها لن
يزول . ولعمري لو نظر احدنا الى ممفس ايام مجدها أو الى نينوه ايام عزها
أو الى اثينا ايام حكمها أو الى رومية ايام سطوتها لكذب التاريخ في ما يدعيه
من زوال تلك المدنية واظن انها لا تزال مخيمة بتلك الربوع لا تؤثر فيها

عوامل الزمان ولا تزعزعها طوارق الحدثان . ولو قال اليوم احدان مدينة الانكليز مثلاً ستزول يوماً ما حتى لو ذهب احدنا الى لندن لراها أثراً بعد عين وراى وستمسرتها كهيكل عظمى في مدينة اموات لكذبناه ونسبناه للجنون . لكن من تدبر نواميس الكون وقاس الحال بالماضى وحكم الماضى بالحال عرف ان ذلك من الممكنات وما أرانا اياه التاريخ اثباتاً لهذه الحقيقة يكفي لمن اتقى السمع وهو شهيد

لكن ما هي تلك النواميس وما الذى يحفظ المدينة وما الذى يذهبها؟ هذه اسئلة صعبة جداً لا يمكننا ان نجيب عنها كلها في هذه المدة القصيرة بل يكفي ان نقول ان حكمة التاريخ وعلم العمران افادانا ان للكون نظاماً بديعاً وسناً محكمة استخرج الغربيون اكثرها واستعملوها في حفظ حياتهم ونحن عن ذلك لاهون مع اننا باستخراجها واستعمالها اولى لما يتلى كل يوم فوق رؤوسنا « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا » « سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً »

فن هذه السنن ان الامة متى فسدت آدابها واخلاقها فسدت عمرانها لان الآداب والاخلاق هي الرابطة في الاجتماع البشري ومتى انحلت هذه الرابطة انحلت عمراه : ولنا في المصريين والرومان اعظم شاهد فقد اجمع علماء التاريخ على ان من اعظم الاسباب في زوال دولتيهم فساد « العائلة » وسوء التربية وانتشار الفجور والعياذ بالله تعالى

ومنها وهو قريب من الاول ان ظلم الدولة مؤذن بخرابها لماله من تشييط المحم عن الاعمال ومتى توقف عمل الامة وحركتها تأخر عمرانها قال العلامة ابن خلدون : « ان المدوان على الناس في اموالهم ذاهب

بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يروونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها
انتهايتها من ايديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت
ايديهم عن السعي في ذلك والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انما
هو بالاعمال

ومنها ايضاً ان الامة التي تزوي عن الامم الاخرى لا اعتقادها انها
اعظم منها علماً وأدباً وفضيلة ونسباً تصبح وراء تلك الامم اذ تقدم العمران
يتوقف على المباراة والمسابقة ولا نجاح بدونهما فالصينيون لما اعتقدوا
انهم افضل الامم نسباً لاتصالهم بالآلهة واتصال غيرهم بالشياطين وان بلادهم
اخصب البلاد واجملها وان عوائدهم افضل العوائد وان لا علم الا عندهم وان
الحكمة لم تتخط سدهم وشطوطهم وان . . . وان . . . قطعوا علاقتهم مع
غيرهم احتقاراً لهم فكانت النتيجة ان بقي عمرانهم تقريباً على ما كان عليه
منذ التي سنة ان لم نقل قد تأخر . فأخني عليهم الدهر بأن ارسل عليهم من
اليابان واوربا ريجاً صرراً قوضت اركان مجدهم واقتلعت جذور عزيم وما
سيصيهم اعظم وكل آت قريب

هذا قليل من كثير اوردناه برهاناً لقولنا ان للكون نظاماً بديماً
وسناً محكمة وأهم منه بالنسبة للمشرق موضوعنا (التقاييد) وقبل الخوض فيه
نقول ان بعض العلماء اطلق هذه الكيادة على بعض الاعمال الخارجة عن
الارادة بعملها المرء بعد ان يحركه بمثلها محرك آخر كما اذا نظرنا الى احد يتشاءب
او يتلجلج في كلامه فرجماً نقلده بلا شعور منا الا ان هذا النوع غير داخل
في بحثنا فاننا انما نبحث في التقليد الارادى وتأثيره في العمران وهو غير يزي
في الانسان وعليه بنى الاجتماع البشرى فمن الحقائق التي لا مشاحة في

حقيقتها ان الطفل مطبوع على تقليد غيره فحركته تكون في اول امره غير مضبوطة ولا متناسبة ولكن كلما تقدم في السن نراه يجتهد ان يأتي بحركات حركات مرضعته ووالديه فيظهر اول الضبط والتناسب في عمله . والامم المتوحشة والتي حظها من المدنية قليل تشبه الطفل بذلك قال ماسون « بينا نرى الكاريين لا يأتون بجديد نراهم ميالين الى التقليد اكثر من الصينيين » وذكر (موات) ان الاندمايزيين اذا سئلوا سؤالاً اعادوا لفظه كالبيضاء من غير جواب . والاعجب ان الفارانيين مع احكامهم التقليد اذا ترك لهم عمل ولو كان بسيطاً جداً خبطوا فيه خبط عشواء . والجامدون في هذه البلاد يشبهون هؤلاء المتوحشين بميلهم الى التقليد الاعمى فانهم اذا رأوا احداً يجتهد بجديد من الاعمال النافعة او استخراج معنى من كتب الدين هزأوا به قائلين : من اين لنا ان نأتى باعمال كهذه ومن منا قادر على فهم تلك الكتب دع ذلك للمتقدمين فزمان الاجتهاد قد زال وما علينا الا التقليد ؟

هذا يدلنا على ان التقليد من طبيعة الانسان ويدلنا أيضاً على ان ما يشغل العقول القاصرة من الصور العقلية للحركات الخارجة أو لغيرها يسوق اصحاب هذه العقول صاغرين للآيات بملها . وربما يصير ذلك بحد قليل شبيهاً بالحركات الطبيعية البدنية الخارجة عن الارادة حركات المعدة في الهضم والرثين في التنفس والقلب في الدورة الدموية . والسبب في ذلك ان قليل التصور ساقط النتيجة لا يستطيع الاجتهاد باكثر المسائل فيستمتع انه غير قادر على الاجتهاد مطلقاً والجامد يتجنبه لما فيه من الاشتغال العقلي فهو عدو كل حركة ولو قيل « الحركة بركة »

التقليد من حيث هو نوع متعددة والذي يهمنها هنا نوعان التقليد في العوائد والتقليد في العلم وهما يشبهان السلطة الشرعية . فكما ان هذه ضرورة للعمران كذلك ذاك اذها قانونه المعنوي وكما ان هذه السلطة الشرعية كثيراً ما يساء استعمالها فبدلاً من ان تكون مدبرة عادلة تكون مستبدة ظالمة كذلك ذاك والمقصود من سوء استعمالها ان يصبح عبثاً ثقيلاً على عائق الامة وحاجزاً منيعاً دون بلوغها ما اصبح لها لازماً ضرورياً . وعلى هذا الاخير بنيت موضوعي واليه وجهت خاطري لما له من التأثير السيء في البلاد . والتقليد الاعمى في العوائد يظهر عندنا كثيراً ايام الاعراس ايام يعرض جهاز العروس في الاسواق محمولاً في العربات أو موضوعاً على رؤوس الرجال - ايام يفتح العروس ابوابه ويمد الموائد ويحشد الجموع التي يكاد ضجيجها يصل الى السماء - ايام يصرف الالوف على الازياء المضرة بالصحة يفعل ذلك كله لئلا يقال انه لم يقم بالفروض ولو كان كما يقول المثل « يبيع الماعون قياماً بالقانون » (استحسان)

اما مجالسنا فهي مظهر التكلف واذا نظرنا الى اكثرها ما ذا نرى ؟ تالله لا نرى الا اناساً جالسين وعلامم السامة تلوح على وجوههم اذا تكلم احدهم فانما يتكلم ليقال عنه انه مسرور وغالباً يكونون صامتين كالاصنام لا يكلم بل لان افكارهم مصروفة الى الخزعبلات - هذا يفكر في قلة ادب الحاضرين لانه لما خرج من المجلس لغرض له وعاد لم يقوموا له وذلك بحيث في سوء معاهلتهم له لانهم لم يضعوه في صدر المجلس - هذا يقول في نفسه ان صاحب البيت لم يستقباني استقبالاً لائقاً بي فياليتني لم ادخل بيته - وذلك ينتقده انه لم يسرع بتقديم الاركيلة (الشيشة) والسيكرات

هذا يشتم الخادم في نفسه لانه اعطى فلاناً القهوة قبله وذلك يتألم من سيده لانه لم يقل له « شرفتم » بعد ان شربها - هذا وهذا ... كل منهم يفكر في هذه الترهات ويخوض في هذه الجريالات حتى اننا كثيراً ما كنا نسمع من يخرج من مجالس كهذه يقسم الايمان المفاظة انه لن يحضر اجتماعا بعدها ابداً (تصفيق)

اي مقابلة بين مجلس كهذا ومجلس لا يدخله الا من صفت قلوبهم وراق ودهم يعرفون معنى الصحبة ويقدرون فائدة الاجتماع حتى قدرها - هذا يأتي بنكتة فيقابلة الحاضرون بالسرور ، وذلك يلقي فائدة فينطقونها بالجور ، حدائق افكارهم لا تأتي الا بيانع الثمر ، وبحار البحاهم لا تجود الا بأثمن الدرر ، يعلمون أن المقصود من الاجتماع التعارف ومبادلة الافكار ، لا تناول القهوة واستعمال السيكار (استحسان)

كل منا ذاق لذة ما نسميه ساعات « الصدف » وود لو تكون كل ايامه مثلها واحس بمجالس الكلف وماله من الاضرار فطنطنة عود يسمها المرء وهو مار في الشارع ربما تفوق لذتها لذة ما كان يحضره من المجالس الموسيقية ويصرف دراهمه لسماعها والسبب في ذلك ما قال المستر هيربرت سبنسر وهو انه كلما ازداد التكلف المحيط بالاجتماعات نقص السرور الحاصل منها لانه لا يمكن القيام بواجباتها الاساسية كلها فكيف بالتكلفت الزائدة المضره ؟

وما قيل عن المجالس يقال عن الولاثم ويزيد في الفتق هنا امر الماكول . اعرف رجلاً كان يجب ان يدعو صديقاً له ولكن منعه من ذلك انه لا يقدر ان يقدم له اربعة وعشرين نوعاً من الماكول . والاعجب

انما صرنا بالتكليف المضر والتقليد الاعمى اذا اردنا ان ندعو صديقاً لنا دعونا معه كل من نريد ان نوفيه ماله علينا من يد كدعوة ماضية او قضاء مصلحة ولو لم يكن بينهما مودة . وهذا نتيجة حالتنا الحاضرة لان الكلفة توجب علينا ان يكون المدعون جمعاً كي يخفف المصروف ولو لم يحصل المقصود . (استحسن)

ولو اردنا ان نمدد ما يجري على المائدة وكيف ان احد المدعويين اذا شبع لا يقدر ان يقوم حتى يشبع البقية لثلاث يقوموا معه وهم جياح لطلال بنا الكلام وأدى الى غير ما كنا نتوخاه من الاختصار . ولهذا المجالس والدعوات اضرار كثيرة لا ينبغي ان تتركها كلها :

منها الاسراف الذي يؤدي الى الخراب فالرجل المتوسط الحال اذا اراد ان يقوم بواجبات الاجتماعات فلم يأخذ بيتاً الا في احسن بقعة من البلد ولم يضع فيه الا ائمن الاثاث ولم يلبس الا آخر زى ولم
يصبح وبساطه الثرى فتحز الدموع في جلباب خده ولكن لا ينفعه البكاء ومنها تخفيف المداشرة الصحيحة التي هي ضرورة للعمران لان من اراد ان يمدرجليه على قدر حافه ينبغي له ان يقل من الاجتماعات ما امكن والا يصبح معدماً كما قدمنا . ومنها ان هذا الحالة توجب للذين لا يتحملون تكاليفها ان يميلوا الى بعض العوائد المضرّة كالجلاس في (القهاوى) ومصروف الاوقات في لعب الورق والبليارد لان المرء اذا فقد شيئاً يسره لا بد له من شيء يقوم مقامه

وما قيل عن الاعراس والمجالس والولائم يقال عن الازباء الا ان الوقت لا يساعدنا ان نبحث فيها لان عندنا ما هو اهم منها وهو التقليد

في العلم .

الباحث في علم الاستقراء يرى ان من اعظم الاسباب التي تمنع من تصحيح الافكار التقاليد في العلم . قام ارسطو في القرن الرابع قبل المسيح وأسس فلسفة بناها على ما بلغ اليه من العلم ثم مضت بعد ذلك مئات من السنين والناس تحذو اثره حذو القنذة بالقنذة والنمل بالنمل فلم يأتوا بمجديد بل ربما تأخروا عنه حتى ظهرت الامة العربية لوجود وقام اساطينها ينتقدون هذه الحالة وفي مقدمتهم الحكيم الفارابي بين لنا ان كون ارسطو شيخ الفلسفة لا يوجب علينا ان نسلم كلامه تسليماً اعمى بل ينبغي ان نبحث فيه فما وافق منه العقل قبلناه ، وما خالفه نبذناه ، وما كادت تنتشر امثال هذه الافكار في الامة حتى كشفت الحكمة الشرقية جلبابها ، وبرزت الآيات العربية من حجابها ، ثم اصابنا ما اصابنا مما يطول شرحه فانتقضت الاحوال واصبح سوق العلم عندنا كاسداً وما لنا اليوم الا ان نقول :

هل الدهر الا ليلة ونهارها والا طلوع الشمس ثم غيابه
وكان الغربيون رأوا فضل العلم عند الشرقيين فاخذوا يجدون السير في طلبه لكنهم لما حصلوا على بعض العلوم واكثرها لارسطو لم يخرجوا عن نطاقها بل ربما كانوا يمسخون اكثرها وظهور (السكولن) ومباحثهم العقيمة كقولهم : كم عدد الملائكة الذين يمكن ان يرفعوا على رأس ابرة واحدة ؟ تشهد لما قدمناه . وهكذا بقي الحال عندهم تقليداً اعمى لرجل لا يفهمون جل كلامه حتى قام (فرانسيز بيكون) في اواخر القرن السادس عشر للميلاد وبين في طريقته الجديدة كمن سبقه من حكماء العرب انه ينبغي لنا ان لا نأخذ

قولاً إلا بعد البحث فيه . فكانت نتيجة أعماله ان اظهر الغربيون في ثلاثة قرون من آثار المدران ما لم يسبقهم اليه أحد . نعم لا ننكر انه حصل بعد ذلك شيء من التقليد المضر كرفض الانكليز تطعيم الجدري لما اخترعه جنر لا اعتقادهم انه يخالف ارادة الباري تعالى الا اننا نرى حكومتهم بعيد ذلك كفاً بمقدار ثلاثين الف ليره

امانحن الآن فكأننا خلقنا للتقليد فانه يظهر في عوائدنا كما قدمنا ، في زراعتنا ، في صناعتنا ، في تجارتنا ، في كل شيء حتى في امور الاعتقاد اذكر قصة اخبرني اياها احد محترمي الفرنجة مثلاً للتقليد في المشرق وهي ان احد فلاحي هذه البلاد كان اذا اراد ان يحمل البطيخ يضعه في أحد جانبي الشريجة^(١) ويضع في الجانب الآخر حجراً للموازنة فقبل له يوماً ان يقسم البطيخ الى قسمين ويضعهما في الجانبين بدلاً من حمل الحجر لانه يتعب الدابة بلا فائدة فشكر النصيحة للناصح ولكنه لم يقم بواجبها لان التقليد احتوى عليه فصدته عن الطاعة والجمالة استحوذت عليه فصرفته عن الرشده وصر في اليوم الثاني وقد اعاد ما تعود عليه فقيل له ما قيل اولاً فقال « هيك عاش ابي وجدى » (تصفيق)

لو بئس من في القبور من اجدادنا لما رأوا في زراعتنا جديداً ولو عرضت عليهم صناعتنا لرأونا اضعناها ، واسقطنا جاهها ، ولو قام اليوم احد ليبدى رأياً او يصلح فاسداً لقال له المتعصبون : القديم على قدمه ذلك زمان قد تصرم وقد كفانا عناء البحث الاولون . « واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا او لو كان

(١) الشريجة جوالق كالخرج ينسج من سفف النخل يحمل فيه البطيخ

آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون « (استحسان)
والذي يزيد في الوهن ان شبان بلادنا الذين يخرجون في مدارس
الاجانب او يتعلمون لغاتهم يخرجون من تقليد ويدخلون في تقليد
يصبحون واوقاتهم تصرف في «البالوات والنيارات» واموالهم تضاع في
المقامرة وعقولهم في المسكرات لا مقصد لهم من اللغات الاجنبية الا ان
يعتاضوا بسلامها عن السلام العربي بقولهم مثلاً « بونچور » (استحسان)
في صدورهم تلهب نار البغضاء للآباء لانهم آباء وفي قلوبهم تعلي
صراجل العداوة للقديم لانه قديم قد هزوا بالجديد لانهم يبنضون
التقليد بل لانهم مقلدون والاعجب انى أعرف رجلاً قرأ ترجمة دارون
فما فهم منها الا انه ينكر البارى تعالى فتمسك بهذا الرأى وصمت اذنه عن
سماح ما يخالفه . يا سبحان الله كيف يجوز ان يسمى هؤلاء بشراً والبشرية
منهم في نفور؟! « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها
أو آذان يسمعون بها فانها لا تسمى الابصار ولكن تعنى القلوب التى فى
الصدور » (تصفيق)

تالله هذه حال تفرق لها العبرات وتُقض لها المضاجع^(١) وما من
احد ينظر اليها الا ويستوبل عاقبتها^(٢) . غيرنا يجتهد كل يوم بتحسين حاله
ونحن بالثرهات مستمسكون . وقد ضربت لنا الامثال « فانا عن التذكرة
معرضون »

(١) اقض المضجع خشن والمراد لازمه وهو عدم استطابة النوم ويقال : اقض

الله فراشه واصل اقض كان فيه القرض وهو الحصى واقضه جملة فيه (٢) استوبل

المكان استوخه ولم يوافق نخته ولم ارهم استعمالوه فى المعانى